



تحديث اللغة العربية بين المحافظة والتماهي

يحيى بن محمد بن علي المهدي

قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم

جامعة قطر .الدوحة

yalmahdi@qu.edu.qa

ملخص -

لقد شهدت اللغة العربية تطوراً كبيراً؛ حتى استقامت على النحو الذي نزل به القرآن الكريم. ولم تتوقف العربية عند هذا الحد، بل فرضت عليها عملية التطور الذاتي، والتأثر والتأثير الخارجي أن تستمر في عملية التجدد اللغوي؛ شأنها شأن مختلف اللغات الحية؛ وذلك بفضل ما تتمتع به من خاصية توسعية اشتقاقية ذات قدرة استيعابية هائلة، تفي بمتطلبات كل عصر، مع محافظتها على خصائصها الأصيلة التي تميزها عن غيرها.

ومع استشراء التبعية العمياء، والانبهار بالغرب في العصر الحديث- ظهرت دعوات تنادي بالتماهي اللغوي مع الآخر، مهما اختلفت أو تعارضت مع هويتنا اللغوية الأصيلة؛ بادعاء أن هذا هو التحديث المطلوب.

والحق أن تلك الدعوات لا تصدر إلا عن رؤية قاصرة أو مشوهة لمفهوم التجديد، تعتمد على معطيات وهمية خارجة عن حقيقته المنشودة؛ إذ لا يمكن للعربية الفصحى أن تكون انعكاساً لصورة اللغات الأخرى؛ لاختلافها واقعاً وخصوصية.

كلمات مفتاحية -

التحديث - المحافظة - التماهي - التجديد - الأصالة - الذوبان اللغوي.

The Modernization Of The Arabic Language: Between Preservation And Identification

Abstract -

The Arabic Language Has Undergone Great Developments Until It Has Settled Itself In The Manner In Which The Holy Quran Came Down. The Arabic Language Has Not Stopped At That Point. Like Many Other Living Languages, Both The Process Of Evolution And Internal As Well As External Influences Have Forced The Arabic Language To Continue The Process Of Linguistic Evolution, Preserving Its Original Characteristics That Distinguish It From Others. The Arabic Language Is In Constant Change Thanks To The Enormous Capacity Of Its Morphological System That Can Cope With Any Linguistic Changes Required For Any Era.

As The Fascination With The Western Modern Civilization And Blind Imitation Spread, There Were Calls For Linguistic Conformity With The Other, No Matter How Different Or Contradictory This Is To Our Original Linguistic Identity, Claiming That This Was The Desired Modernization.

Indeed, These Claims Only Based On A Narrow Or Blind Vision Of The Concept Of Modernization, That Rely On Misleading Interpretation Of Data Beyond Its Intended Meaning; Classical Arabic Cannot Be A Reflection Of The Image Of Other Languages As It Is Quite Unique In Its Structure And Use.

Keywords -

Modernization - Preservation - Identification - Renewal - Originality - Linguistic Assimilation

المقدمة -

جاروا عليها زاعمين صلاحها في نبذ طارفها وفي تقييدها
لم يعلموا أن اللغات حياتها في بعث تالدها وفي تجديدها
مرت اللغة العربية الفصحى بمراحل عديدة؛ حتى استقامت على النحو
الذي نزل به القرآن؛ حيث خضعت لعمليات تصفية وتنقيح وتهذيب. وقد فرضت
عليها عملية التطور الذاتي، والتأثر والتأثير الخارجي أن تستمر في عملية
التجدد اللغوي؛ شأنها شأن مختلف اللغات الحية. وقد ساعدها في ذلك ميزتها
التوسعية الاشتقاقية الفريدة.

وحاولنا في هذا البحث الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- هل اللغة العربية بحاجة إلى التحديث؟ ولماذا؟
 - هل يمكن للعربية أن تواكب الجديد في ظل المحافظة على أصالتها؟
 - ما مظاهر التجديد في العربية عبر مسيرتها الطويلة؟
 - ما المدى الذي يمكن الوصول إليه في عملية التطوير اللغوي للعربية؟
 - ثم ما المخاطر الكامنة وراء تقمص الثقافة اللغوية للآخر؟
- ونزعم أننا قد استطعنا أن نصل إلى هدفنا في هذه الدراسة المقتضبة؛ وهو
إعطاء القارئ تصوراً موجزاً يجيب عن هذه الأسئلة، ويجعل الباب موارباً؛
ليستوعب دراسات قادمة أكثر تفصيلاً.
- وقد جمعنا في تناولنا لموضوع هذه الدراسة بين المنهج الوصفي والتاريخي
المقارن..

فإن كنا قد أصبنا؛ فذلك ما كنا نبغي، وإن كانت الأخرى فحسبنا
الاجتهاد.

والله نسأل التوفيق والسداد،،،

توطئة: حاجة اللغة العربية إلى التحديث:

بما أنَّ اللغة كائن حيٌّ؛ ينمو ويتطور مع الناطقين به؛ فالعربية ليست بدءاً من اللغات، ولا تشدُّ عن هذه الحقيقة؛ فهي تحيا باستعمال أهلها لها، وتتطور بتطويرهم لأساليبها، وتتجدد بتحديثهم لمفرداتها ومصطلحاتها، بما يتناسب مع حركة الزمن واحتياجات كل عصر..

ولا يمكننا أن نتجاهل ما مرت به اللغة العربية من مراحل تكوينية وتطويرية عبر مسيرتها الطويلة؛ فلا يختلف اثنان في كون عربية اليوم تختلف من حيث المفردات والمصطلحات - بل حتى الكثير من طرائق الأداء - عما كانت عليه في العصر الجاهلي، وما تلاه من العصور المتقدمة، سواء أكان ذلك من حيث الكم، أم من حيث الكيف؛ فقد تطورت العربية وتجددت وتوسعت من عصر إلى عصر.

مما سبق يتضح أن تحديث اللغة العربية أمر حتمي، تفرضه السنن الكونية، وطبيعة اللغات الحية، التي لا تتوقف عند حد، بل تستمر في عملية التأثير والتأثر والتجدد والتوسع على الدوام.

وقد يحمل كلامي هذا من لم ينعم النظر فيما ذكر - على التساؤل: هل تزعم أن اللغة لعربية تحتاج إلى التجديد والتحديث، وهي من أضبط اللغات شكلاً، وأقواها دلالة، وأكثرها ثباتاً ومتانة.. بل هي محفوظة بحفظ الله لها؟

أقول: ما دامت العربية تسائر الناطقين بها؛ فهي تتأثر بما يتأثرون به، ويعتريها من القدم والبلى ما يعتريهم، كما ينالها من التجدد والتطور ما ينالهم. بل على العكس مما يظنه بعض من لم يستوعب جيداً طبيعة اللغات الحية.. يعد التجديد اللغوي، والتطور، الدلالي، والتوسع المصطلحي - ميزة من ميزات اللغة العربية؛ فهي لم تعجز يوماً عن مواكبة كل جديد مستحدث؛ سواء أكان ذلك في باب المفردات، أم المصطلحات، أم التراكيب، أم المعاني والدلالات.. وصدق "حافظ إبراهيم" إذ يقول -على لسان العربية-⁽¹⁾:

وسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لِفُظاً وَغَايَةً وَمَا ضِيقَتْ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق أسماء لمخترعاتي

(1) ديوان حافظ إبراهيم، 1/ 250.

المبحث الأول: مظاهر تجديد العربية في ظل الأصالة:

لا بد من التسليم -بدايةً- بأن عملية التحديث أو لتجديد لا تكون بدءاً من لا شيء؛ بل لا بد من وجود شيء قائم ابتداءً، يكون محوراً لهذه العملية؛ حيث يرى الناس أنه بحاجة إلى إبراز وصل؛ ليبدو أجمل ما يمكن أن يكون في عيون الناظرين إليه الآن، وليس من نظروا إليه قديماً؛ إذ تختلف المعايير من زمن إلى آخر.

فالقديما كانوا يرونه كاملاً مميّزاً لا يحتاج إلى شيء. ولو خالجهم شك في جدته ومناسبته وقوة دلالته... لسعوا إلى تصييره جديداً مناسباً. وهذا على خلاف من جاؤوا من بعدهم؛ حيث استجذبت في زمنهم أمور كثيرة لم تكن عند أسلافهم، تحتاج إلى مسaire ومواكبة. مع محافظة الفريقين على سماته الأصيلة المميّزة له عن غيره، وعدم تفريطهم في ثوابته المعبرة عن منشئه والمبرزة لهويته.

وهذه الرؤية المسلم بها هي التي ننطلق منها في هذا المبحث المختص بمظاهر التجديد في اللغة العربية في ظل الأصالة.

فبقاء الأصل اللغوي المجدد، وثبات الدلالة الأم لهذا الأصل - شرط لازم لعملية التجديد، وإلا فلا تجديد، بل هدم وابتداع وتبعية على غير هدى. فالتجديد إذن من منظورنا أمر حتمي يفرضه التطور الزمني والفكري، وهو أقرب ما يكون إلى الإحياء والبعث والتوسع والتطوير المستمر باستمرار الحياة وتواصل الأحياء.

ومظاهر التجديد في العربية تتمثل في أمرين:

الأول: داخلي؛ يتعلق بزيادة مفرداتها، والتطور الدلالي لألفاظها واشتقاقاتها المنداحة من تفرعات جذورها الأصيلة؛ فاللغة العربية لغة اشتقاق تقوم في غالبيتها على أبواب الفعل الثلاثي، والتي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية.

كما تتميز العربية بتنوع الأساليب والعبارات، والقدرة على التعبير عن معان ثانوية لا تستطيع اللغات الغربية التعبير عنها. ناهيك عن كون العربية هي أقرب اللغات إلى قواعد المنطق⁽²⁾.

لقد استطاعت اللغة العربية بما تملكه من خاصية اشتقاقية واسعة أن تستوعب - عبر القرون - كل ما جد من تحديث لغوي لدى العرب أنفسهم؛ حيث استنسخت العربية من جذورها الأصيلة كمأ هائلاً من المفردات والتراكيب الدلالية الجديدة، التي طرأت وتطراً في حياة الناطقين بها إلى يومنا هذا؛ بفضل ما تتمتع به هذه الجذور من مرونة عالية وقدرة استيعابية فريدة، قد لا تدانيها في ذلك أية لغة أخرى.

ولو رجعت بنا الذاكرة إلى البدايات الأولى الموثقة لألفاظ العربية الفصحى، سواء ما قيل من أشعار العرب، أم ما أثر من نثرهم، لوجدنا أن مفرداتها كانت محدودة، وأساليبها محصورة ضمن أداء لغوي متشابه إلى حد كبير؛ وما ذاك إلا لأنهم يصدرون عن بيئات تكاد تكون متماثلة، وواقع بسيط غير معقد؛ فالعربي لا يرى إلا الصحراء الخالية، ولا يصاحب إلا الخيل أو الناقة إن كان بادياً... وقد يعرف الجبل أو البحر أو جدول الماء إن كان حاضراً... والكل لا يرى سوى الشمس والقمر والنجوم؛ فيعبر عما يختلج في نفسه من مشاعر بسيطة، ورؤية بدائية ساذجة؛ تجعل من تصويره مشبعا بمفردات هذا الإطار الضيق.

ولو قارنا تلك المفردات بما تحفل به عربية اليوم مما لا يكاد يحصى من المفردات والتراكيب والدلالات؛ لأدركنا حجم التحديث اللغوي الهائل، الذي رافق اللغة العربية عبر مسيرتها لطويلة؛ استجابة لدواع كثيرة، ليست هذه الدراسة موضع بسطها..

ومن المعلوم أن اللغة العربية قد تضخمت كثيراً بعد القرن الثاني الهجري، وهي تحوي الآن مليوني مادة لغوية، بينما اللغتين الإنجليزية والفرنسية مجتمعتين لا تتوفران إلا على أربعمئة ألف مادة كما يقول "الدكتور/ حسين

(2) انظر: الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني (بيروت - لبنان)، 1982م،

الزراعي"⁽³⁾. بل إن "لسان العرب" لـ "ابن منظور" (ت: 711هـ)، قد توفر على ثمانين ألف مادة لغوية، مشتقة من تسعة آلاف ومئتين وثلاث وسبعين جذراً لغوياً. وهذا دليل عملي على السعة الاشتقاقية الهائلة في العربية، وهو كتاب معجمي واحد ضمن عشرات المعاجم اللغوية العربية. وهذا كله يؤكد حتمية التجديد والتحديث اللغوي المستمر للعربية.

وقد منّ الله على الباحث أن تم اختياره ضمن لجان إعداد المعجم التاريخي للغة العربية، الذي تتبناه دولة قطر، ممثلة في مؤسسة معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، وأتيح للباحث فرصة الاطلاع على بعض معالم التجديد والتحديث الذي رافق العربية عبر العصور.

ولا يستبعد الباحث فرضية من يشنون الحملات الشعواء على من يرى ضرورة تجديد العربية - لا يستبعد أن هؤلاء يصعدون عن رؤية قاصرة أو مشوهة لمفهوم التجديد، تعتمد على معطيات وهمية خارجة عن حقيقة التجديد الذي نوّكه ونشده في آن معاً.

وقد أصاب "د. عادل مصطفى" في توصيفه لأهل العربية؛ إذ يقول - في تقديمه لكتاب "على هامش التجديد والتقعيد في اللغة العربية المعاصرة" - : «وقد رأيتُ الناسَ في هذا الأمرِ واحداً من اثنين: إما كاره للعربية بطبيعته ومُسْتَصْعِبٌ لها، وراغب في أن يسمع نعيها في أسرع وقت، وإما مترمت يريد أن يحنطها كما هي ويقف بها حيث وقَفَ الأسلافُ منذ أكثر من ألف عام ... هذا الحزبُ الثاني، حزب الغلاة الغيورين المحافظين، ليس بعيداً في نتائجه عن الأول:

يوشكُ تَنْطَعُهُمُ القَائِم على أساس مغلوطة ومصادراتٍ باطلة، أن يترك مركبَ اللغة يَغْرُقُ بحمله، وتوشكُ العربيةُ في قبضتهم المتشنجة أن تموتَ اختناقاً.

(3) من مداخله نشرتها صحيفة "نوافيك" الإلكترونية للأستاذ الدكتور/ حسين الزراعي - باحث أكاديمي في معجم الدوحة التاريخي (www.nwafecom.net).

يُنْسَى المحافظون، هواة "قل .. ولا تقل"، أن اللغة ليست كياناً كلسياً نهائياً. إنما اللغة في سيولة دائمة، وفي تحولٍ دائم...»⁽⁴⁾.

ولعل هذا راجع إلى اعتقادهم أن التجديد يعني القطيعة بين الماضي والحاضر، والتخلي عن الأصل، والتنكر له، وهذا لعمري وهم كبير، منشؤه خطأ في تحديد مفهوم التجديد في العربية، ومقارنته بمفهوم التجديد في الغرب. إن مفهوم التجديد عندنا - نحن العرب - يختلف البتة عنه في المفهوم الغربي؛ الذي ينفي العلاقة الواضحة بين القديم والجديد، والثابت والمتغير، فهو يتجاوز السالف إلى الطارف - إن جاز التعبير - ، وهو ما يسمى عندهم بالتبدل والتحول؛ الناتج عن التكيف، وليس التجدد والتطور للأصل الثابت.

ويبدو أن هذا المفهوم الغربي للتجديد ناتج من نواتج الصراع الشديد الذي حصل بين سلطة الكنيسة المحافظة، وتمرد رواد العلم والمعرفة وأنصار العقل عليها؛ مما أحدث قطيعة بائنة بين الطرفين، تقوم على الثورة ضد كل ما هو قديم محافظ؛ وليس هذا مشابهاً لمفهوم التجديد وواقعه في العربية البتة؛ حيث يتقاطع مفهوم لتجديد عندنا مع مفهومي الأصالة والتراث المبرران عن الهوية والوعي بالتطور التاريخي، فيكون التجديد مولوداً من رحمهما.

أما المظهر الثاني من مظاهر التجديد في العربية، هو أمر خارجي؛ يتمثل في تماسها مع اللغات الأخرى، وما اكتسبته من مفردات ومصطلحات جديدة على نطاق واسع؛ وذلك بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس، وإطلاعهم على ثقافات الأمم الأخرى وتراثهم العلمي والحضاري.

لما انطلق العربي بعيداً عن الجزيرة العربية إبان الفتوحات الإسلامية، كان مضطراً إلى التعامل مع واقع سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي واسع جداً، ومعقد للغاية، يختلف بشكل كلي عن واقعه البسيط؛ فلم يجد بداً من تطويع لغته؛ لتناسب متطلبات هذه البيئة الجديدة، فاستقرض من مفرداتها، وعمل على تكييفها بما يتناسب مع لغته الأصيلة، معتمداً على أصولها القابلة للتشكل

(4) تقديم أ.د. عادل مصطفى لكتاب "على هامش التجديد والتقييد في اللغة العربية المعاصرة"، أ.

د. سليمان جبران، إصدار: مجمع اللغة العربية، (حيفا - فلسطين)، (د.ت)، ص: 9، 10.

والاشتقاق. مع بقاء هذه الأصول مستعملة بدلالاتها الأولى، والتصرف فيما ينداح منها من ألفاظ ومفردات مستحدثة، بما لا يتعارض مع الأصل..

ومن أبرز الأمثلة على ما نال العربية من تجديد واضح في زمن محدود - حركة الترجمة والتعريب الكبرى التي حصلت إبان العصر العباسي، والتي تعد من أكبر عمليات الترجمة وأضخمها في تاريخ الإنسانية.

لقد شملت حركة الترجمة والتعريب في العصر الذهبي تراثاً مختلف الأمم والحضارات، كالفارسية، والهندية، واليونانية، والرومانية، والسريانية، وغيرها؛ بفضل بمرونتها، واتساع مدلولاتها، وكثرة مصطلحاتها، ودقة ألفاظها. فقد أسس العباسيون «بيت الحكمة أو دار الحكمة، وهي أول مؤسسة في الإسلام تُعنى بشؤون الترجمة والمترجمين، وأغدق الخليفة هارون الرشيد العطايا على المترجمين...، ثم آلت الأمور إلى ابنه الخليفة العالم المأمون الذي أعطى حركة الترجمة دفعةً قويةً، ومضى قدماً في تقريب الترجمة وإعظام شأنهم، حتى نقلوا روائع المصنفات العلمية في الطب والفلك والفلاحة والرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرها من اللغة اليونانية والهندية والكلدانية والفارسية والسريانية إلى لغة العرب.

ويبدو أن تلك الحفاوة كانت نابعة من إدراك العباسيين لما يمكن أن يلعبه هؤلاء المترجمون من دور فعال في الحركة التجديدية اللغوية؛ فما اللغة إلا أصوات الهدف منها التعبير عن خلجات النفس .. وأن الفرد بماله من ملكات ودوافع خلاقية هو المحرك الأساسي لكل تجديد وتغيير في اللغة⁽⁵⁾.

ولم يكتف المأمون بتحويل كتب العلوم النافعة إلى العربية، بل أمر بوضعها موضع التطبيق العملي، فبنيت المراصد والمدارس التي أمر فيها بتعلم الكتب المترجمة، وتعليمها للناهبين من أبناء الأمة، ونبغ في عصره وما تلاه كبار

(5) انظر: بحثاً بعنوان: "التجديد اللغوي بين الإمكان الذهني والإمكان الواقعي"، د. أحمد جار الله الزهراني - جامعة أم القرى، ص: 2.

التراجمة، وبفضل ذلك أصبحت بغداد زمن العباسيين أعظم مركز للترجمة والنقل في العالم»⁽⁶⁾.

وكان من نتائج التواصل والاتصال الكبير بين العربية واللغات الأخرى أن دخل العربية كمّ هائل من المفردات التي تم تعريبها؛ مما أسهم في توسّع العربية بشكل غير مسبوق، بل ظهرت علوم لغوية جديدة تختص بمثل هكذا مفردات، عرفت بعلم: "التعريب"، و"الترجمة"، و"النحت" وغيرها..

ولو أردنا مقارنة مفردات العربية في العصر العباسي -فقط- مع مفرداتها فيما سبقه من عصور، لوجدنا أن هناك فرقاً هائلاً بينها من حيث الكمّ؛ فقد تضاعفت العربية في العصر الذهبي بشكل لافت -كما أشرنا-، يكاد يطبق عليه علماء العربية جميعاً.

وحتى لا يكون البحث مجرد فلسفة لفظية خالية من التطبيق والاستدلال -نورد طرفاً مما تم ترجمته إلى العربية من روائع ونفائس ثقافات الأمم الأخرى؛ وذلك على سبيل المثال لا الحصر:

فقد ترجموا عن الهندية الكتاب المسمى "بالسند هند" في علم النجوم، و"بيافر" في الموسيقى، و"كليلة ودمنة" في إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق.

ونقلوا عن الفارسية: "عهد أردشير" نقله البلاذري، ونقل عبدالله بن المقفع: "خدا ينامه" في السير، و"آئين نامه" في الآيين: (العرف، السلوك)، و"مزدك"، و"التاج في سيرة أنوشروان"، وترجم جبلة بن سالم "رستم واسفنديار"، وترجم "التاج" و"دارا والصنم"، و"أدب الحروب"، و"فتح الحصون"، و"المدائن"، و"تريص الكمين"، و"توجيه الجواسيس"، و"الطلائع والسرايا" و"وضع المسالك".

وترجموا من العبرية "التوراة"؛ ترجمها أبو كثير يحيى بن زكريا الطبراني، وترجمها سعيد بن يعقوب الفيومي، وترجم ابن وحشية كتاب "الفلاحة النبطية" من النبطية أو لسان الكلدانيين.

أما ما تُرجم من اليونانية أو الإغريقية، فإنه يفوق كل ما تُرجم من اللغات الأخرى، فقد تُرجمت كتب جالينوس وشروحها في الطب، وكتب أرسطو

(6) الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي، د. سمير الدروبي، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ط 01، 2007م، ص: 14 وما بعدها.

طاليس في الفلسفة والمنطق، وترجم سالم مولى هشام بن عبد الملك رسائل أرسطو طاليس، ونقل أبو عمر يوحنا بن يوسف كتاب أفلاطون في "آداب الصبيان"، ونقل كتاب إفليمون في "الفراسة"، وترجم كتاب إيرخس، أو إيرخس في "أسرار النجوم في معرفة الدول والملل والملاحم"⁽⁷⁾.

إن ما حصل من ثورة كبرى في الترجمة والتعريب في العصر العباسي؛ لهُو أكبر دليل على ما يمكن أن تنجزه العربية في مجال التحديث اللغوي لمكوناتها.. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا:

هل أثر التجديد الكبير الذي حصل للغة العربية إبان العصر العباسي بوساطة عشرات المصطلحات ومئات المفردات التي تم تعريبها واقتراضها من اللغات الأخرى - هل أثر ذلك سلباً على العربية الفصحى؟

إن المتتبع لعملية الترجمة والتعريب يدرك يقيناً أن هذه العملية قد أسهمت في تجدد العربية، وزيادة حيويتها وتفاعلها مع هذا الجديد عبر العصور، بل هي مصدر من مصادر قوة العربية، وسر من أسرار خصائصها العجيبة، ومعلم بارز على مرونتها وقدرتها التوسعية الهائلة وغير المحدودة.

وعملية التعريب لا ترتبط بزمان محدد، بل هي عملية مستمرة باستمرار الحياة، ونحن في زمننا الراهن أكثر احتياجاً لها من ذي قبل، وهذه الحاجة هي التي فرضت على المجمع الجامع اللغوية أن تتجه إلى التعريب؛ وإلى ذلك يشير "الدكتور إبراهيم أنيس" بقوله: ((ولما رأى المجمع أن للتعريب في عصرنا الحديث فوائد تتلخص في غنى اللغة بذخيرة من الكلمات التي تعبر عن كل ظلال الإنسانية كما أنه يمدنا بفيض من المصطلحات العلمية الحديثة التي لا نستغني عنها في نهضتنا العلمية))⁽⁸⁾.

وما تطالعنا به المجمع اللغوية اليوم من مصطلحات ومفردات، وتراكيب جديدة- ما هي إلا مظهر بارز من مظاهر التجديد في اللغة العربية، وعوامل مهمة تسهم في ترقية الفصحى؛ لتستوعب كل ما يجد في العلوم والفنون

(7) الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي، ص: 37 وما بعدها.

(8) أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة - مصر)، ط: 6 (1978م)، ص:

الحديثة، وفي بحاجات الحياة العصرية، مع بقاء الفصحى - في الوقت نفسه - محافظة على رونقها الأصيل، وثوابتها المتينة.

وما زالت عربية تكتسب يوماً بعد يوم مفرداتٍ جديدة؛ بفضل التقدم العلمي والطفرة التكنولوجية، التي لا تكاد تهدأ على مدار الساعة الواحدة.

وفي المقابل لم نجد العربية تضعف أو تتواري، بل على العكس من ذلك؛ ففي الوقت نفسه الذي كان العرب يترجمون عن الأمم الأخرى، كانوا ينقلون لغتهم وثقافتهم إلى تلك الأمم، التي استفادت من علوم العرب أيما استفادة إلى يوم لناس الناس هذا.

يقول "الدكتور/ سمير الدروبي": «وقد كانت الترجمة أولى وسائط الاتصال والنقل المعرفي بين الأمة العربية وغيرها من الأمم، وعندهم تعلم الإغريق والرومان، ونقلوا وترجموا»⁽⁹⁾.

ولو أخذنا على سبيل المثال أهم اللغات التي كان لها تماسٌ كبير مع العربية، وتأثير بارز في مفرداتها وهي اللغة الفارسية، سنجد أن اللغة العربية قد أحدثت أثراً أكبر في اللغة الفارسية على الرغم من كون اللغتين لا ينتميان إلى أصل واحد؛ «فاللغة الفارسية تعود أصولها إلى مجموعة اللغات الآرية أو الهند أوروبية، أما اللغة العربية فهي إحدى اللغات السامية»⁽¹⁰⁾.

والعامل الأبرز في تأثير العربية على الفارسية هو العامل الديني؛ كون العربية هي لغة الإسلام الذي اعتنقه الكثير من أهل فارس، كما أصبحت العربية لغة الثقافة والفكر، «والمتتبع لأثر اللغة العربية في اللغة الفارسية يجد أعداداً لا تحصى من المفردات العربية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من اللغة الفارسية وخاصة منها المتصل بالإسلام والحياة الإسلامية مثل: صلاة، زكاة، حج، مسلم، جهاد ... إلخ»⁽¹¹⁾.

(9) الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي، ص: 7.

(10) الترجمة وفعل المثاقفة، زرماس، ص: 18.

(11) بحث بعنوان: حركة الترجمة في العصر العباسي تواصل مع الآخر، د. معن علي

المقابلة: (الأردن)، 2009، ص: 6.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد «بل نجد التأثير يصل الى قواعد الفارسية نفسها كالروابط مثل حروف الجر وأسماء الإشارة وحروف النداء والتنبيه واستعمال المفعول المطلق في مجال التاكيد، وتقيد الجمل العربية في التقديم والتأخير وغيرها»⁽¹²⁾.

كما أخذت الفارسية من العلوم العربية أوزان الشعر وعلم القوافي، كما وضعت المعاجم الفارسية على أسلوب المعاجم العربية. إلا أن أهم مظهر من مظاهر تأثير اللغة الفارسية باللغة العربية وهو مثال واضح على التواصل الثقافي بين الحضارتين واللغتين اتخاذ اللغة الفارسية للأحرف العربي أداة للكتابة ... فطيلة القرنين الأول والثاني الهجريين أصبحت اللغة العربية هي اللغة المستخدمة في بلاد فارس⁽¹³⁾. بل لقد أعطت العربية حروفها الهجائية لمئات الملايين من الشعوب، سواءً أكان ذلك في بلاد الفرس أم الهند أم الترك⁽¹⁴⁾.

ومن هنا ندرك أن التجديد اللغوي الذي حظيت به العربية عبر العصور رافقه تأثير بالغ للغة العرب في ثقافات المجتمعات التي تم النقل والترجمة إلى العربية من خلالها. وهذه حقيقة ثابتة في عملية التأثير والتأثر اللغوي لا ينكرها أحد؛ مما يجعلنا نستنتج أن العربية كانت في أوج مجدها، ومنتهى قوتها، محافظة على أصالتها وخصوصيتها، ولم تتخل عن أي من ذلك عندما اكتسبت من غيرها؛ وهذا يفسر لنا سرّ التأثير الكبير للغة العربية في الأمم الأخرى؛ إذ لو كانت العربية قد تخلت عن أصالتها، لما كان لها هذا الزخم التأثيري في ثقافات الآخرين من غير العرب.

ولم تكن مظاهر التجديد في العربية محدودة بجانب معين، بل شملت شتى الجوانب اللغوية؛ فقد تنوعت مجالات التجديد في اللغة العربية؛ من تجديد في المفردات، إلى تجديد في المصطلحات، وتجديد في التراكييب، إلى تجديد في ميادين البحث اللساني والحاسوبي اللغوي، إلى تجديد في مناهج تعليم اللغة

(12) (اللغة العربية في إيران منذ الإسلام حتى اليوم، الكك، فكتور، مجلة عالم الفكر، مجلد: 37، 2008م)، ص: 8.

(13) (انظر: المرجع السابق، ص: 8، 9.

(14) (انظر: الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، ص: 14، 15.

العربية. ناهيك عما تنتجه الجامعات اللغوية، والندوات والمؤتمرات العلمية من ثروة لغوية هائلة تفي بمتطلبات العلوم والفنون الحديثة، وتواكب كل مستحدثات الحياة وحاجاتها العصرية، وتُكَيِّفُهَا وفقاً لخصائصها الأصيلة؛ مما جعلها تتجاوز عامل الزمن.

من خلال ما سبق، واعتماداً على السياق التاريخي والمعطيات الواقعية - ندرك أنّ اللغة العربية قد استطاعت القيام بكل ما من شأنه أن يساعد على ترقيتها، وفقاً لتراثها اللغوي الأصيل؛ فقد واكبت كل جديد مع محافظتها على أصالتها وثوابتها المميّزة لها عن سائر اللغات، كما لم تتوقف في مستوى محدد.. وهو عين ما قصدناه في هذا المبحث.

المبحث الثاني: مخاطر الذوبان اللغوي في الآخر:

لقد آثرت لفظ "التماهي" في العنوان، وهو لفظ اشتهر حديثاً، على السنة المحدثين - وخاصة في مجالات: علم النفس والسياسة والنقد الأدبي؛ ومن ذلك قولنا: "التماهي مع ثقافة الغرب قد بلغ ببعض الناس حدّ التبعية".

ومصطلح "التَّمَاهِي" Identification، "، يفسره البعض بالتَّقْمُص أو التَّوْحُد⁽¹⁵⁾؛ فالتماهي يتقمص شخصية الآخر عن رغبة، ولا يقلده فقط. ومعنى ذلك أنه قد يصل إلى درجة التوحيد مع الآخر، وتبني كل سماته ورواه؛ وهنا تكمن المشكلة.

يعرف "الدكتور/ مصطفى حجازي" التماهي بأنه: «استلاب الإنسان المقهور الذي يهرب من عالمه كي يذوب في عالم المُتَسَلِّط؛ أملاً في الخلاص»⁽¹⁶⁾.

ويذكر "حجازي" أن ظاهرة التماهي بالمتسلط تأخذ صوراً عدة؛ من أخطرهما وصول التماهي إلى درجة "الاستعلاء"، لأنه يتم بدون عنف ظاهر، بل من خلال رغبة الإنسان المقهور في الذوبان في عالم المُتَسَلِّط.

وهنا يكون الضحية قد خضع لعملية (غسيل مخ) من خلال حرب نفسية مُنَظَّمَة لتحطيم القيم الاجتماعية والحضارية للفئة المقهورة⁽¹⁷⁾.

(15) (انظر: موقع الألوكة (www.alukah.net)

(16) (التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، د. مصطفى حجازي، المركز

الثقافي العربي (الدار البيضاء - المغرب)، الطبعة: التاسعة، (2005م)، ص: 127.

التَّمَاهي - إذن - : هو تماثل وتطابق ناتج عن ذوبان في الآخر، وانسلاخ من الذات، بل إلغاء تام لها؛ يصل إلى حد تغييب العقل، وحرمان المجتمع وثقافته رؤية البدائل المطروحة للأمر موضع البحث والنقاش، ويوصله إلى الجمود الفكري والعقائدي، ويؤدّي - في الأغلب - إلى الخروج عن الطريق الصحيح، وهو - في أضعف آثاره السلبية - يُعطلُّ اتخاذ القرار الصائب، ويُؤخر التَّقدُّم ويحرم أي أمة قِسْماً مهماً من عقولها النيرة، وهو سلوك مُدان بكل المعاني⁽¹⁸⁾.

وقد تنبه أسلافنا إلى الخطر الكبير الذي يحدثه التماهي على الهوية، وحذروا منه؛ ولعل عبارة "ابن خلدون" المشهورة في "مقدمته" ما يغني عما سواها؛ إذ يقول: «إن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب، في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده؛ والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها ... فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبّهت به، وذلك هو الاقتداء. أو لما تراه - والله أعلم - من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، إنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب»⁽¹⁹⁾.

فغرور القوي زين له أن يجعل من الشعوب العربية والإسلامية يقلبون كتابتهم من اليمين إلى الشمال، ومن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني؛ ليريحوا رجالاتهم وأذنانهم من عناء تعلم العربية⁽²⁰⁾.

لكن لـ: "لتماهي" أصلاً معلوماً؛ فالكلمة مشتقة من جذر عربي هو (م و هـ)؛ جاء في "تاج العروس": «من المجاز: أَمَاهَ الشيءُ: خَلِطَ»⁽²¹⁾. وفي "المعجم الوسيط": «أَمَاهَ الشيءُ بالشيءِ: خَلَطَهُ»⁽²²⁾.

(17) انظر: المرجع السابق، ص: 127.

(18) السابق، ص: 127 (بتصرف).

(19) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد

الرحمن بن محمد بن خلدون،

تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر (بيروت - لبنان)، الطبعة: الثانية (1408هـ - 1988م)، 1/184.

(20) من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الثانية،

(1971م)، ص: 178.

وجاء بوزن "تَفَاعَل" من هذا الجذر فكان "تَمَاوَه" فَحَدَّثَ قَلْبٌ مَكَانِيَّ بِتَقْدِيمِ عَيْنِ الْكَلِمَةِ عَلَى اللَّامِ، فَصَارَتِ الْكَلِمَةُ "تَمَاهَوَ"؛ مِثْلُ: "تَاءٌ" مِنْ "النَّأْيِ"؛ قُدِّمَتْ اللَّامُ مَوْضِعَ الْعَيْنِ، ثُمَّ قَلِبَتِ الْيَاءُ أَلِفًا؛ فَوُزِنَتْهُ "فَلَعٌ" وَمِثْلُهُ "رَاءٌ" وَ"رَأَى" وَ"شَاءٌ" وَ"شَأَى". ثُمَّ قَلِبَتِ الْوَاوُ فِي "تَمَاهَوَ" أَلِفًا؛ لِتَحْرُكِهَا إِثْرَ فَتْحَةٍ، فَصَارَتْ "تَمَاهِي"؛ وَأَصْلُ الْمَصْدَرِ: "تَمَاهَوٌ"؛ لَكِنْ تَطَرَّفَتِ الْوَاوُ إِثْرَ ضَمَةِ؛ فَقَلِبَتِ يَاءً "تَمَاهِي"؛ ثُمَّ كَسَرَتِ الْهَاءُ لِمَجَانَسَةِ الْيَاءِ فَصَارَ الْمَصْدَرُ: التَّمَاهِي، عَلَى وَزْنِ "التَّفَاعُلِ"؛ بِضَمِّ اللَّامِ؛ لِأَنَّ الْإِعْلَالَ بِالْقَلْبِ لَا يُوَثِّرُ فِي الْمِيزَانِ.

ففي التماهي دلالة التفاعل بين أمرين؛ إذ هي على وزن المشاركة (تفاعل)، مع الانتباه لما في المعنى من دلالة غلبة أحدهما على الآخر - كما بيّنا - . فنحن عندما نقول: تماهى الملح في الطعام، أو تماهى السكر في الماء؛ فإننا نقصد أنه رقَّ حتى اختفى، وأصبح جزءاً من الطعام أو من الماء، وهو ما نطلق عليه "الذوبان".

ومن دلالات هذا الجذر (م وه) الانتشار، كما في انتشار الماء، المشتق من الجذر نفسه؛ جاء في قول "الحسن بن علي" - رضي الله عنهما - أنه قال: "ومن يملك انتشار الماء؟"⁽²³⁾ .؛ والتماهي: انتشار لصفات المُتَسَلِّطِ على غيره من المقهورين.

وجاءت دلالة الصيغة تؤكد هذا المعنى، فالكلمة على وزن "تَفَاعَل" المقلوب إلى "تَفَالَع"، وهذا الوزن من معانيه أنه مُطَاوَعٌ "فَاعَلْتُ" نحو: "بَاعَدْتُه فَتَبَاعَدَ". وهو الوزن المناسب للمعنى المراد؛ مما يدل على أن المعنى الحديث للكلمة مُتَّصِلٌ بِأَصْلِهِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ.

وهناك مصطلحان آخران - في المعاجم العربية - لفتا نظر الباحث؛ هما مصطلح: "النَّمَهِ" وهو التغير والفساد، ومصطلح: "المَهْي" وهو رقة الشيء. ولا

(21) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهاديّة (د.ت)، 510/36.

(22) انظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، منشورات مجمع اللغة العربية، (د.ت)، 892/2.

(23) المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: كمال الحوت، مكتبة الرشيد (الرياض - السعودية)، الطبعة: الأولى (1409هـ)، 93/1.

يستبعد الباحث أن لهما علاقةً ببعض معاني التماهي؛ فقد جاء في "مقاييس اللغة": «التاء والميم والهاء كلمة واحدة تدل على تغيير الشيء»⁽²⁴⁾.

وفي "الصحاح": «تَمَهَ الطَعَامُ (بالكسر) تَمَهًا: فَسَدَ. وقال أبو الجراح: تَمَهَ اللحمُ تَمَاهَةً، وَتَمَهَ اللبنُ: تَغَيَّرَ رَائِحَتُهُ»⁽²⁵⁾. وفي "القاموس": «تَمَهَ الطَعَامُ - كَفَرَحَ - تَمَهًا وَتَمَاهَةً: تَغَيَّرَ رِيحُهُ وَطَعْمُهُ. وَشَاءَ تَمَاهًا: يَتَغَيَّرُ لَبَنُهَا رِيثًا يُحْلَبُ»⁽²⁶⁾.

وفي "اللسان": «تَمَهَ الدُّهْنُ واللبن واللحم يَتَمَهُ تَمَهًا وَتَمَاهَةً، فهو تَمَهٌ: تغير رِيحه وطعمه، مثل الزُّهُومَةِ. وَتَمَهَ الطَعَامُ، بالكسر، تَمَهًا: فَسَدَ»⁽²⁷⁾.

وهذا المعنى قوي في الدلالة على المراد؛ فما التماهي إلا تغير لسمات لأصل وذوبان لها في غيرها؛ إذ تطغى سمات المتماهي فيه على سمات المتماهي، بحيث لا تكاد تظهر؛ وهو عين ما قصدناه في هذا البحث.

أما دلالة "التمه" على الفساد، فهي دلالة حريّة بالتأمل؛ فذوبان المتماهي في المتماهي فيه تعني ضياع الأول البتة؛ لعدم ظهور خصائصه، وبقاء الثاني؛ لوجود خصائصه فقط، أو طغيانها - على الأقل -؛ وبناءً على ذلك ففساد المتماهي تحصيل حاصل؛ فهو سابق للضياع؛ إذ هو مضمن في عملية التماهي نفسها.

أما دلالة المهى على رقة الشيء، فنكتفي بما أورده "ابن منظور"؛ حيث جاء في "لسان العرب": «المَهُوُ من السيوف: الرقيق؛ قال صخر الغي:

وصارمُ أَخْلَصَتْ خَشِيبَتُهُ ❖ ❖ ❖ ❖ أَبْيَضَ مَهُوً فِي مَتْنِهِ رُبْدُ

(24) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر (1399هـ - 1979م)، 1/ 354.

(25) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين (بيروت - لبنان)، الطبعة: الرابعة (1407هـ - 1987م)، 6/ 2229.

(26) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت - لبنان)، طبعة: الثامنة (1426هـ - 2005م)، ص: 1244.

(27) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر (بيروت - لبنان)، الطبعة: الثالثة (1414هـ)، 13/ 481.

... قال ابن جني: وذلك لأنه أرقُّ حتى صار كالماء»⁽²⁸⁾؛ بمعنى أننا لا نكاد نراه في الماء لشدة رقيقته؛ فقد تماهى في الماء؛ كأنه منها؛ فلم نستطع تمييزه. وهو ما نعنيه هنا..

وما يزال هذا اللفظ متداولاً بالدلالة نفسها إلى اليوم؛ فيقال عندنا في اليمن:

"مهى السمن أو الزيت" أي: ذاب. ويستخدمونها مجازاً؛ فيقولون: "مهى فلان أمام فلان من الحياء"؛ أي: تلاشى حياءً منه؛ حتى لكانه لا يكاد يُرى. وكل هذه المعاني التي أشرنا إليها مرادة في هذه الدراسة؛ مطابقةً أو اقتراباً. قد تحدثنا بما فيه الكفاية عن حتمية التأثير والتأثر بين اللغات؛ وبالتالي عدم حجر إفادة اللغات بعضها من بعض؛ ومن ذلك استفادة علماء العربية من النظريات اللغوية الحديثة، التي برع فيها الغربيون.

فليس من المعيب الاقتداء بالآخر فيما فيه منفعة الذات، مهما اختلفنا مع هذا الآخر في الأيدولوجية، أو تبايناً في الثقافات..؛ وهذا أمر مسلم به، بل ومرغّب فيه في موروثنا الديني؛ "فالحكمة ضالة المؤمن، حيث وجدها فهو أحق بها"⁽²⁹⁾. لكن العيب كل العيب في التقليد الأعمى للآخر، واعتناق فرضية أنه لا يخطئ، وكل ما يصدر عنه هو الصواب عينه، أما نحن فعلى النقيض..، الخطأ كل الخطأ في التبعية الخالية من التفكير فيما يؤخذ من ثقافة هذا الآخر ونظرياته ورؤاه وما يُردُّ منها، وما يتوافق مع خصائصنا وخصوصياتنا وما يتعارض..، وما يصلح لنا وما لا يصلح..

«هناك فرق كبير بين التبعية والاقتداء، الأولى تخلو من التفكير، والثانية تقوم على الإعجاب بجوانب معينة في المقتدى به، إضافة إلى أن الاقتداء ينتج عنه كيان قوي، لأنه قائم على انتقاء جوانب القوة في الآخرين، أما التبعية فإنها تتسم بغياب التفكير النقدي، والإحساس بالدونية، وأن السبيل إلى الارتقاء لا يكون إلا بتقليد الآخر، دون التفات إلى الظروف البيئية والمجتمعية المختلفة،

(28) (المرجع السابق، 1 / 352.

(29) (ليس هذا بحديث على الأصح..، وقد ورد في سنن الترمذي برقم (2687)، قيل إنه من مراسيل "زيد بن أسلم"، كما في مسند الشهاب (1/118)، وفي التقريب لابن حجر (1/222).

نتيجة ضعف الثقة في الذات، وعدم تكليفها بالبحث عن جوانب الإبداع الكامنة فيها ..»⁽³⁰⁾.

وإذا كانت التبعية ممقوتة مرفوضة على الإجمال، فالتبعية اللغوية – وهي ما تعيننا هنا – أشد مقنناً ورفضاً؛ كونها أسوأ صور التبعية في العصر الحديث، فهي تمس أظهر معلم من معالم الهوية الدينية والقومية معاً. فما الذي أبقاء السائرون في متاهة التغريب من هوية عربية أو إسلامية؟ وما الذي جناه اللاهثون وراء وهم لغة (العصر) غير السراب؟ وما الذي أبدعه المنبهرون بالثقافات الدخيلة الوافدة مما لم تستطعه الأوائل؟ وما الذي حققه المنادون ليل نهار بالانسلاخ عن التراث اللغوي الأصيل من إنجاز يستحق الذكر؟

ولقد بلغ اليأس ببعضهم حداً أصبح الشفاء منه أمراً مستحيلاً، ووصل تأثير اللغات الأجنبية إلى درجة جعلهم ينظرون إلى كل ما هو أجنبي بعين الرضى، وأنه عين الصواب، وأن كل ما هو عربي مشكوك في أمره، وأنه لا يمكن أن يرقى إلى المستوى المطلوب... وتناسوا أن هذه اللغة تمتاز بخصائص الاشتقاق والترادف والنحت والتوليد.. إلخ، وأن نظامها الصرفي والنحوي يجعلانها لغة لا يمكن أن تنعت بهذه النعوت، خاصة وأن هذه اللغات الأجنبية قد اقترضت من العربية ألفاظاً تعد بالمئات ما تزال مستخدمة حتى الآن)⁽³¹⁾.

ولو تتبعنا الدعوات المحمومة إلى تقليد الآخر في العصر الحديث؛ فسيطول بنا المقام..؛ حيث لا تزال دعوات الناعقين بالتخلي عن الفصحى قائمة، وما تزال المؤامرة على اللغة العربية الفصحى مستمرة لم تتوقف.. لها خيوطها المرتبطة بالاستعمار والاستشراق والتبشير والتغريب.. ثم تضاعفت الدعوة إليها وتنوعت مرتبطة بالصهيونية والماركسية..

(30) (التبعية اللغوية.. وعقدة الإحساس بالدونية، الكاتب الصحفي: إبراهيم متولي، مجلة الوعي الإسلامي (الكويت)، العدد: (570) (ديسمبر – يناير 2013م).

(31) (دراسة بعنوان: اللغة العربية في الجزائر (التاريخ والهوية)، د. عز الدين صحراوي، (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية – جامعة محمد خيضر "بسكرة" – العدد: (5) – يونيو- 2009م.

وهذه مؤامرة تلبس في بعض حلقاتها ومراحلها ثوب البحث العلمي، وتحاول أن تدعي أنها تستهدف الخير والتقدم .. والصورة المعروضة اليوم تخدع الكثيرين. مازال الاستشراق وتلاميذه من أدياء العرب يشنون الحملة المسعورة تلو الأخرى على اللغة العربية الفصحى، ويتهمونها بالجمود والقصور وعدم التطور. لن أتحدث هنا عن المستشرقين ودورهم في هدم الفصحى؛ فهذا شأنهم...، وتلك وظيفتهم...، والبحث لا يُعنى بهم، لكنني أكتفي بالإشارة إليهم؛ للدلالة على تماهي دعوات تلامذتهم من العرب مع دعواتهم.

ومن أبرز هؤلاء المستشرقين: "ولهلم سبيتا" و"وليم ويلكوكس" و"بول" و"فيلوت" الذين تبنا الدعوة لإحلال العامية المصرية، أما المستشرقان الفرنسيان "ماسنيون" و"بنيار" وأمثالهما فقد نصحا أصدقاءهما العرب بكتابة لغتهم بالحروف اللاتينية، وترك حروف الفصحى⁽³²⁾؛ بدعوى أن الكتابة بالحروف اللاتينية مختزلة مختصرة في حين أن الكتابة بالحروف العربية صعبة؛ لتعدد أشكال الحرف الواحد، وكثرة الحروف المتشابهة في الرسم، كذلك افتقار العربية إلى العديد من الحروف الموجودة في اللغات الأخرى⁽³³⁾ - حسب زعمهم -

وقد نسي هؤلاء أو تناسوا ما فعلوه باللغة التركية بعد تبني الحرف اللاتيني؛ حيث صارت مضحكة، فكلمات: "حامد" و"خامد" و"هامد" كلها تكتب: "Hamid" ثم تقلب كل "دال" فتصير "تاء"؛ حتى إن نور الدين تصبح - بقدرة قادر - نور التين. كما أخرست ألسنتهم عن انتقاد أي من اللغات الأخرى التي تضم مئات الحروف والصور كالصينية واليابانية⁽³⁴⁾. ولم ينتقدوا اليهود الذين نبشوا القبور ثم أخرجوا لغة ميتة؛ عمرها ألوف السنين وراحوا يستعملونها!

(32) انظر: الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، ص: 188.

(33) مقال بعنوان: "يسرو النحو للمعربين"، أحمد الخطاب عمر، مجلة العربي (الكويت)، العدد: 229، (1983م).

(34) بحث بعنوان: "هدم اللغة العربية الفصحى"، د. نعمان عبدالرزاق السامرائي، مجلة الأدب الإسلامي/ المجلد: الأول/ العدد: الرابع/ ربيع الثاني (1415هـ)، ص: 27 - 29.

«وقد استجاب ضعاف النفوس وصغار العقول لهذه الدعوات، ناهيك عن المشبوهين في خلقهم ووطنيتهم، وشملت نشاطاتهم الدينية كلا من ساحل الشام (لبنان)، ومصر، والمغرب في فترات متقطعة»⁽³⁵⁾.

فالمصيبة تكمن في تلامذتهم المستغربين؛ أصحاب الدعوات الهدامة، الذين وجهوا - وما زالوا يوجهون - سهامهم المسمومة نحو لغة القرآن؛ ومن أبرزهم "لطفی السيد" الذي كتب عام 1913م مقالات عدة، يدعو فيها إلى استعمال الألفاظ العامية، وإدخالها حرم الفصحى. وكذلك "قاسم أمين" الذي دعا عام 1912م إلى تسكين أواخر الكلمات عوضاً عن الإعراب⁽³⁶⁾. وهو نفسه صاحب دعوة تحرير المرأة التي كانت بمثابة دعوة إفساد بامتياز؛ فانظر كيف يتبنى هؤلاء المستغربون دعوات الهدم لكل أصيل.

ولمثل دعوة "قاسم أمين" في ترك الإعراب دعا "عبد العزيز فهمي" وتبعهما كثيرون مثل: "يوسف الخال"، وكثيرون سواه دعوا إلى ذلك ومن آخرهم أستاذ بجامعة الملك سعود بكلية الآداب؛ يقول عنه بعض طلابه: إنه كان يقول لهم إن عيبه عدم استطاعته إيصال ما يريد لطلابه لضعف لغته، وكانت لغته ضعيفة، ولسانه مطبوع على العامية لا يستطيع الفكك منها.

وما زلنا نسمع بين الحين والآخر هذه الدعوات المشبوهة إلى التماهي والذوبان اللغوي في الآخر؛ فهذه وزيرة التربية الجزائرية تتماهى مع الدعوة إلى تدريس العامية بدل الفصحى.

وهناك باحثون ومفكرون يدعون إلى توحيد اللغة العربية في مستوياتها العامي والفصحى في لغة واحدة بين بين⁽³⁷⁾. ويرى "واي" أن في مثل هذه الدعوى

(35) من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، ص: 179.

(36) انظر: الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، ص: 185، 186.

(37) مقال بعنوان: "دعوات توحيد الفصحى والعامية"، وفاء نجار، مجلة: عود الند الثقافية،

السنة: السابعة، العدد: 80.

هبوطاً من الذرى إلى السفح حيث تقبع العامية معايشة أوكار الجهل، لتستخدم في كافة المجالات التي تعتمد حالياً على العربية الفصحى⁽³⁸⁾.

لقد شجع الإنجليزي و"يلمور" هذه الدعوة إلى توحيد اللغة، داعياً إلى توحيد لهجة مصر. فكان رد "عبد العزيز شاويش" على ويلمور هو:

"هل خطر في بال ويلمور أن يدعو قومه الإنجليز إلى توحيد لغتهم؟ إنه يعلم أن التفاوت بين لهجة أهل لندن ولهجة سائر الولايات المتحدة، أشد من التفاوت بين لهجة مصر ولهجات الدول العربية الأخرى"⁽³⁹⁾.

ولم تتوقف التبعية عند هذا الحد؛ بل وصلت الجراً في التماهي مع ثقافة الغرب إلى درجة المناداة بالعامية مكتوبة بالحروف اللاتينية؛ كما فعل "سلامة موسى"، و"أنيس فريحة"، و"الخوري مارون غصن". وأصدر "فريحة" كتاباً بعنوان "نحو عربية ميسرة" عام 1955م، ضمنه دعوته الهدامة، زاعماً أن العامية هي لغة الحياة⁽⁴⁰⁾، ومتناسياً أن الفصحى كانت وما تزال لغة الحياة القومية لأكثر من ثلاثمائة مليون من العرب، ولغة الفكر والعقيدة والثقافة لأكثر من ألف وخمسمائة مليون من المسلمين.

وفي المقابل ظهر نمط آخر من دعاة العامية ممن يلبسون مسوح حب اللغة العربية .. وعلى رأس هؤلاء "طه حسين" الذي قدم أطروحته التي تبين الطريق للحفاظ على سلامة تكون مقربة من العامية في يسرها، بعيدة عنها في استهتارها وتملصها⁽⁴¹⁾.

(38) (فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وإيفي، الطبعة: السابعة، دار النهضة مصر للطباعة والنشر (القاهرة - مصر)، (1972م)، ص: 154 وما بعدها.

(39) (انظر: اللغة العربية بين حمايتها وخصومها، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، (بيروت - لبنان) (د.ت) ص: 54.

(40) (انظر: نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، دار الثقافة (بيروت - لبنان)، 1973م، ص: 122، 123.

(41) (مشكلات اللغة العربية المعاصرة، مجد البرازي، مكتبة الرسالة (عمّان - الأردن)، الطبعة: الأولى، (1989م)، ص: 57.

ومن هنا فإن محاولة القول الذي تردد كثيراً على السنة "طه حسين" و"سلامة موسى" و"لطفى السيد"، وما يزال يتردد على السنة بعض من يتولون أمر اللغة، بأن اللغة العربية لغتنا ونحن أصحابها، ولنا حق التصرف فيها، هو قول باطل وغير صحيح ومردود؛ ويرده واقع التاريخ ومنطق البحث العلمي .. وربما كان قولاً صحيحاً بالنسبة للغات الأوروبية.

وعلى الرغم من كل تلك الدعاوى المحمومة إلى السير في فلك الغرب والتماهي في تقاليد اللغوية، فالواقع الملموس يكذب كل دعاوى الهدامين والتاريخ أصدق من كل ما يكتبون، فقد استطاعت العربية البدوية أن تساير الحضارة في بغداد، ولم تهزم أمام اللغات الأخرى. ويرى "محمد محمد حسين" أن قواعد النحو التي يزعمون أنها معقدة استطاعت أن تعيش لأكثر من ألف سنة، وأنتج الناس خلالها في مختلف الأمصار العربية وغير العربية ثروة من الكتب العربية التي لا تحصى⁽⁴²⁾.

لقد أراد المستغربون، الذين أشربوا ثقافة الآخر، وأصبحوا جزءاً منه - أن تذوب العربية كما ذابوا، وعملوا على إسقاط مخططات أساتذتهم المستشرقين المشبوهة على الفصحى بكل ما أوتوا من قوة، دونما مراعاة للظروف والخصائص المتباينة. ولكن أحلامهم تبخرت عندما اصطدمت بطود العربية الضاربة أطناباً الأصيلة في أعماق التاريخ.

وستظل العربية حصناً منيعاً، وصخرة صلبة تتكسر عليها كل هذه الدعاوى التي تماهت في ثقافة الآخر، وانسلخت عن أصالتها اللغوية، وتنكرت لكل معاني الانتماء..

(42) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة

(القاهرة - مصر)، الطبعة: الثالثة، (1972م)، ص: 373.

الخاتمة -

تعد اللغة العربية من اللغات التي شهدت تطوراً كبيراً، عبر مسيرتها الطويلة؛ وذلك بفضل ما تتمتع به من خاصية اشتقاقية ذات قدرة استيعابية هائلة في شتى الجوانب العلمية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والحداثيّة وغيرها.. تفي بمتطلبات كل عصر.

وقد رأينا كيف أثّرت اللغة العربية في اللغات الأخرى، وكيف تأثرت بها، وفي الوقت نفسه ظلت محافظة على خصائصها الأصيلة التي تميزها عن غيرها.

وتعد التبعية اللغوية أسوأ أنواع التبعية التي لحقت بنا في العصر الحديث؛ تلك التبعية التي تمثلت في الدعوات الهدامة للغة العربية من الداخل، التي تنادي بالتماهي مع الآخر، والذوبان في ثقافته وتبني رؤاه، مهما اختلفت أو تعارضت مع هويتنا اللغوية الأصيلة؛ نتيجة الانبهار والتقليد الأعمى للآخر؛ مما دفع إلى تضخيمه وتقزيم الذات.

ولو أننا منحنا أنفسنا الفرصة، وأعدنا اكتشاف ما يكمن في لغتنا من إمكانات معطلة، لأمكننا أن نكون إضافة جديدة ومهمة للعالم، الذي لا يعترف إلا بالأقوياء، ولا ينظر إلى المسخ المشوه الذي لا يمثل إلا صورة باهتة ضعيفة، وإنما ينجذب نحو الأصل القوي الذي يبهر الأبصار، يظهر فيه إبداع الصانع النابع من ذاته، وفهمه للهدف الذي من أجله صنع ما صنع.

ولا يمكن للعربية الفصحى أن تكون انعكاساً لصورة اللغات الأخرى؛ لاختلافها واقعاً وخصوصية. وستظل لغة القرآن الفصحى من أقوى روابط العروبة الأصيلة، وأبرز معالم الهوية العربية والإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

فهرس المراجع

- 1- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، دار النهضة العربية للطباعة (القاهرة- مصر)، الطبعة: الثالثة (1972م).
- 2- أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة - مصر)، الطبعة: السادسة (1978م).
- 3- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية (د.ت).
- 4- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين (بيروت- لبنان)، الطبعة: الرابعة (1407هـ - 1987م).
- 5- التخلف الاجتماعي (مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور)، د. مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء - المغرب)، الطبعة: التاسعة، (2005م).
- 6- الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي، د. سمير الدروبي، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، ط 01، 2007م.
- 7- الترجمة وفعل الثقافة، زرماس.
- 8- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر (بيروت- لبنان)، الطبعة: الثانية (1408هـ - 1988م).
- 9- ديوان حافظ إبراهيم.
- 10- على هامش التجديد والتقييد في اللغة العربية المعاصرة، أ. د. سليمان جبران ، إصدار: مجمع اللغة العربية، (حيفا - فلسطين)، (د.ت).
- 11- الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني (بيروت- لبنان)، 1982م.
- 12- فقه اللغة، د. علي عبد الواحد وإيفي، الطبعة: السابعة، دار النهضة مصر للطباعة والنشر (القاهرة- مصر)، (1972م).
- 13- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت - لبنان)، طبعة: الثامنة (1426هـ - 2005م).
- 14- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر (بيروت- لبنان)، الطبعة: الثالثة (1414هـ).
- 15- اللغة العربية بين حماتها وخصومها، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، (بيروت- لبنان) (د.ت).

- 16- مشكلات اللغة العربية المعاصرة، مجد البرازي، مكتبة الرسالة (عمّان - الأردن)، الطبعة: الأولى، (1989م).
- 17- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: كمال الحوت، مكتبة الرشيد (الرياض - السعودية)، الطبعة: الأولى (1409هـ).
- 18- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، منشورات مجمع اللغة العربية، (د. ت).
- 19- من حاضر اللغة العربية، سعيد الأفغاني، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الثانية، (1971م).
- نحو عربية ميسرة، أنيس فريحة، دار الثقافة (بيروت - لبنان)، 1973م.

الأبحاث:

- 1- دراسة بعنوان: اللغة العربية في الجزائر (التاريخ والهوية)، د. عز الدين صحراوي، (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة محمد خيضر (بسكرة - الجزائر) - العدد: (5) - يونيو - 2009م.
- 2- التجديد اللغوي بين الإمكان الذهني والإمكان الواقعي، د. أحمد جبار الله الزهراني - جامعة أم القرى.
- 3- حركة الترجمة في العصر العباسي تواصل مع الآخر، د. معن علي المقابلة، (الأردن)، 2009.
- 4- اللغة العربية في إيران منذ الإسلام حتى اليوم، الككفكتور، مجلة عالم الفكر، مجلد: 37، (2008م).
- 5- هدم اللغة العربية الفصحى!، د. نعمان عبدالرزاق السامرائي، مجلة الأدب الإسلامي/ المجلد: الأول/ العدد: الرابع/ ربيع الثاني (1415هـ).

المقالات:

- 1- التبعية اللغوية.. وعقدة الإحساس بالدونية، الكاتب الصحفي: إبراهيم متولي، مجلة الوعي الإسلامي (الكويت)، العدد: (570) (ديسمبر - يناير 2013م).
- 2- دعوات توحيد الفصحى والعامية، وفاء نجار، مجلة: عود الند الثقافية، السنة: السابعة، العدد: 80.
- 3- يسروا النحو للمعربين، أحمد الخطاب عمر، مجلة العربي (الكويت)، العدد: 229، (1983م).

المواقع الإلكترونية:

- 1- موقع الألوكة (www.alukah.net).
- 2- صحيفة "نوافيك" الإلكترونية (www.nwafecom.net).